مراجعات

محمد علي طه ، **جسر على النهر الحزين : والقصة الفلسطينية**
(منشورات عربسك ، فلسطين المحتلة ١٩٧٤).

هناك ملاحظة مهمة يدركها الدارس المتتبع لما ينشر من نماذج قصصية في فلسطين المحتلة تستحق كثيرا من العناية والتأني في تقصي أبعادها ودلالاتها الفكرية والادبية . وهذه الملاحظة هي توجه القصة في الاراضي المحتلة الى اتخاذ طابع خاص يميزها عن غيرها من القصص الفلسطيني والعربي . وبعبارة أوضح فان قارىء النماذج القصصية القصيرة والطويلة التي كتبها كتاب يعيشون في فلسطين المحتلة يدرك انها أخذت تشكل تيارا فنيا له خصائصه المضمونة والتكنيكية التي تمنحه صفة الامتياز والتميز عن غيره من تيارات القصة ولعلي استطيع الزعم بأن المقارنة بين هذه النماذج القصصية مع نماذج الكتاب القصصيين في المنفى تضعها في موضوع خاص فعندما نقرأ لكاتب كغسان كنفاني او كاتبة شهيرة كسميرة عزام او اي كاتب آخر لوجدنا أنهم كتاب عرب يتناولون في قصصهم وروایاتهم القضية الفلسطينية وشعبها ، بدرجات متفاوتة من الاخلاص والمعاناة ، ومستويات مختلفة من حيث الجودة والاتقان التكنيكي . لكننا في المقابل ندرك شيئا مهما وهو أن القصاصين من امثال اميل حبيبي وحنا ابراهيم ومحمد نفاع ومحمد علي طه وتوفيق فياض هم قصاصون فلسطينيون اولا . ويكتبون عن الشعب الفلسطيني والارض الفلسطينية . ولقد بحثت عن كاتب آخر من الذين لم يقضوا حياتهم في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ يمكن ان يندرج في هذا التيار فلم أجد الا كاتبا واحدا لم ينشر حتى الان مجموعة قصصية وان كان قد نشر عددا غير قليل من القصص هو الكاتب خليل السواحري الذي أبعد عن الضفة الغربية عام ١٩٦٧ بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي الاردني .

على أن سمات هذا التيار القصصي المستقل عن غيره من التيارات تبرز في مناح مختلفة أبرزها ناحية المضمون ثم النواحي التكنيكية ، ولكل سمة من هذه السمات عدة مسببات وحوافز جعلتها قادرة على فرض حضورها في هذه النماذج القصصية .

تقف على رأس هذه السمات — مضمونيا — الحس الطبقي . فهؤلاء القصاصون منتمون طبقيا للكادحين عمالا وفلاحين وبرجوازية صغيرة منسحقة. ولا نكاد نجد نموذجا قصصيا واحدا لا يتجلى فيه هذا الحس الطبقي . فجميع النماذج البشرية التي اهتم بها حنا ابراهيم في مجموعته القصصية الاولى « ازهار برية » (صدرت سنة ١٩٧٢) هم من الناس المسحوقون اجتماعيا واقتصاديا وطبقيا . كما تعكس قصصه وجهة نظر نقدية تجاه النماذج الاخرى كالزعامات التقليدية والوجاهات العشائرية. ولعل نجاح حنا ابراهيم في قصصه هذه يعود الى خبرته الطويلة في النضال العمالي . فهو من الكتاب الذين ارتبطوا بصفوف هذه الطبقة منذ الثلاثينات . وكان عضوا في عصبة التحرر الوطني قبل النكسة . وما يزال في طليعة العاملين في راكاح الذي يدافع عن حقوق الاقلية العربية من النواحي الاجتماعية اكثر من غيره من الاحزاب (انظر : الدراسة عن المجموعة في جريدة الدستور الاردنية ، (ع ٢٥٩٥) ، تاريخ ١٩٧٤/١٠/١٤).

واذا شئنا النظر في قصص الشارع الاصفر وجدنا الكاتب يخلص الى درجة مذهلة في تصوير النماذج الريفية طبقا لوجهة النظر الطبقية . ففي قصة الغرس لتوفيق فياض مثلا ما يؤكد الدلالة القاطعة لموقفه الطبقي .